الفصل الخامس

التفسير والمفسرون

أنزل الله كتابه العظيم، ليكون دستوراً للمسلمين، ومنهاجاً يسيرون عليه في حياتهم، فيستضيئون بضيائه، ويهتدون بهديه، ويقبسون من تعاليمه الرشيدة، ونُظمه الحكيمة ما يجعلهم في أوج السعادة والعزّة، ويرفع بهم إلى ذُرَى المجد والكمال، ويؤهلهم إلى قيادة ركب الانسانية، ويجعلهم السادة والقادة في هذه الحياة، يسيرون بالأمم إلى حياة العزة والكرامة، ويوصلونهم إلى شاطيء الأمن والاستقرار والسلام.

ولا ريب أن البشرية تتخبط اليوم في ظلمات الشقاوة والجاهلية، وتغرق في بحار التحلّل وعبادة المال، وليس لها من منقذ إلا الإسلام، عن طريق الاسترشاد بتعاليم القرآن ونظمه الحكيمة، التي روعيت فيها جميع عناصر السعادة للنوع البشري، على ما أحاط به علم الخالق الحكيم، ومن البَدَهي أن العمل بهذه التعاليم لا يكون إلا بعد فهم القرآن وتدبّره، والوقوف على ما حوى من نصح وإرشاد، وهذا لا يتحقق إلا عن طريق الكشف والبيان، لما تدل عليه آيات القرآن، وهو ما نسميه بـ (علم التفسير) خصوصاً في هذه العصور الأخيرة التي فسدت فيها ملكة البيان العربي، وضاعت فيها خصائص العروبة، حتى من سلائل العرب أنفسهم. فالتفسير هو المفتاح لهذه الكنوز والذخائر، التي احتواها هذا الكتاب المجيد، وبدونه لا يمكن الوصول إلى هذه الكنوز والذخائر، واللآلىء والجواهر، مهما بالغ الناس في ترديد ألفاظ القرآن، وقرءوا آياته في كل صباح ومساء.

وإنه لمن المؤسف أن يكتفي المسلمون من القرآن بألفاظ يردّ دونها، وأنغام يلحّنونها، في المآتم والمقابر، وعند الاحتفالات الرسمية، ثم لا يكون للقرآن نصيب منهم إلا الطرب بالسماع أو التبرك بالتلاوة، وهذا ما عناه الرسول ﷺ بقوله «يتّخذون القرآن مزامير» وقد نسي المسلمون أو تناسوا أن بركة القرآن العظمى إنما هي في تدبره وتفهمه، وفي الاهتداء بهديه، والاستفادة من تعاليمه وتوجيهاته، ثم الوقوف عند أوامره ومراضيه، والبعد عن مساخطه ونواهيه، والله تعالى يقول: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [1] ويقول سبحانه ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ؟ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [2] ويقول جلّ ذكره: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ، فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ؟﴾ [3].

فما أشبه المسلمين اليوم بالرجل العطشان يموت من الظمأ والماء بين يديه، أو بالحيوان يهلك من الجوع والعطش والزاد والماء على ظهره، وما أجمل قول القائل:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمولُ

ولقد صدق رسول الله ﷺ حين قال:

«لقد تركت فيكم أمرين، لن تضلوا ما تمسكتم بهما بعدي أبداً، كتاب الله، وسنتي» [4].

لماذا نفسّر القرآن؟

أسئلة تخطر ببال كل إنسان.. وتجول في كل فكر «لماذا نفسّر القرآن»؟ ألنجيد قراءته، ونتقن تلاوته؟

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٩.

(٢) سورة محمد، الآية: ٢٤.

(٣) سورة القمر، الآية: ١٧، والآية: ٢٢، والآية: ٣٢.

(٤) الحديث رواه أصحاب السنن.

أم لنزيل الستار عن غامض معانيه؟
أم لنجلو أسراره، ونبرز محاسنه؟

لا.. لا..ليس لهذا، ولا لذاك فقط، بل لنتحرر من عبادة العباد، وتبعية البشر، إلى عبادة رب العباد جلّ وعلا.. ونربط الفرد والجماعة بخالق العوالم، ومدبّر الكون، ربّ السموات العُلَى، وربّ العرش العظيم!!

فالقرآن الكريم دستور الأمة، وهداية الخالق، وشريعة الله لأهل الأرض، وهو النور الرباني، والهدي السماوي، والتشريع العام الخالد، الذي تكفّل بكل ما يحتاج إليه البشر في أمور دينهم ودنياهم. ولا عجب فهو كتاب كامل، ونظام شامل، يشمل جوانب الحياة بأجمعها، في العقائد. والعبادات. والأخلاق. والمعاملات. وفي السياسة والحكم وفي السّلْم والحرب. وفي الشئون الاقتصادية والعلاقات الدولية. فهو كتاب جامع أنزله الله تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون، وهو في ذلك كله حكيم كل الحكمة، لا يعتريه خلل ولا اختلاف، فلا عجب أن كانت السعادة لا تنال إلا بهديه، والتزام ما جاء به، فهو شفاء لما في الصدور، وعلاج لما حلّ أو يحلّ بالمجتمع من شرور. **﴿وننزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلاّ خساراً﴾**.[1]

الفرق بين التفسير والتأويل:

التفسير في اللغة هو: الإيضاح والتبيين. قال تعالى **﴿ولا يأتونك بمثل إلاّ جئناك بالحقّ وأحسن تفسيراً﴾**[2]، فقولنا: فسّر بمعنى بيّن ووضّح، وكلام مفسّر: أي واضح ظاهر. وأما التفسير في الاصطلاح فهو: علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيّه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه[3]. وعرّفه غيره بأنه

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٣.

(٣) التعريف للزركشي من كتاب البرهان ص ١٣.

obeikandi.com

(علمٌ يُبْحثُ فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مزاد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية[1].

معنى التأويل:

وأما التأويل فهو لغةً من الأول بمعنى الرجوع، فكأن المفسّر أرجع الآية إلى ما يحتمله من المعاني. ويرى بعض العلماء أن التأويل مرادف للتفسير حتى قال صاحب القاموس: أوّل الكلام تأويلاً، وتأوّله بمعنى: دبّره وقدره وفسّره، ومنه قوله تعالى ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾[2] أما في الاصطلاح فهو عند المتقدمين بمعنى التفسير، فيقال تفسير القرآن، ويقال تأويل القرآن، بمعنى واحد. قال (ابن جرير الطبري) في تفسيره: (القولُ في تأويل قوله تعالى كذا.. واختلف أهل التأويل في هذه الآية...) يريد بذلك أهل التفسير.

وقال (مجاهد): إن العلماء يعملون تأويله (يعني القرآن) ويريد تفسير معناه. وذهب فريق من العلماء إلى أن بين (التفسير والتأويل) فرقاً جلياً وقد اشتهر هذا عند المتأخرين.

التفسير: هو المعنى الظاهر من الآية الكريمة.

وأما التأويل: فهو ترجيح بعض المعاني المحتملة من الآية الكريمة التي تحتمل عدة معان. وقد أفاض العلامة (السيوطي) في كتابه (الاتقان في علوم القرآن) في هذا البحث ونقل نقولاً كثيرة عن العلماء نكتفي بأجمعها وأقربها إلى الصواب وهو أن نقول (بأن التفسير هو كشف معاني القرآن الظاهرة، والتأويل ما استنبطه العارفون من المعاني الخفية والاسرار الربانية اللطيفة التي تحملها الآية الكريمة). وهذا الذي اخترناه هو الذي ذهب اليه (الألوسي) رحمه الله حيث قال:

(قد تعورف عن المؤلفين من غير نكير أن التأويل معانٍ قدسية، ومعارف ربانية

---

(١) انظر: مناهل العرفان للزرقاني.

(٢) سورة آل عمران، جزء من الآية: ٧.

openkandil.com

تنهل من سحب الغيب على قلوب العارفين، والتفسير غير ذلك..)

والخلاصة: أن التفسير هو المعاني الظاهرة من القرآن الكريم التي هي واضحة الدلالة على المعنى المراد لله عز وجل. والتأويل، هو المعاني الخفية التي تستنبط من الآيات الكريمة والتي تحتاج إلى تأمل وتفكر واستنباط والتي تحتمل عدة معان فيرجّح المفسّر منها ما كان أقوى عن طريق النظر والاستدلال، وليس هذا الترجيح بقطعي بل هو ترجيح للأظهر والأقوى إذ الحكم بأنه المراد القطعي تحكم في كتاب الله، والله تعالى يقول **﴿وما يعلم تأويله إلاّ الله..﴾**(1) الآية. والله أعلم.

أقسام التفسير

يقسم التفسير حسب الاصطلاح العلمي الدقيق إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: (التفسير بالرواية)، وهذا الذي يسمّى التفسير بالنقل أو التفسير بالمأثور.

ثانياً: (التفسير بالدراية) وهذا الذي يسمّى التفسير بالرأي.

ثالثاً: (التفسير بالإشارة) وهو الذي يسميه العلماء (التفسير الإشاري)

وسنتحدث عن كل قسم من هذه الأقسام بالتفصيل إن شاء الله ونوضّح السليم من

القسم الأول

التفسير بالرواية

هو ما جاء في القرآن، أو السنة، أو كلام الصحابة، بياناً لمراد الله تعالى تفسير القرآن بالسنة النبوية، فالتفسير المأثور إما أن يكون تفسير القرآن بالقرآن، أو تفسير القرآن بالسنة النبوية أو تفسير القرآن بالمأثور عن الصحابة.

أ ـ مثال ما جاء تفسيره في القرآن الكريم قوله تعالى: **﴿أُحِلّت لكُمْ بَهيمةُ الأنعام إلا ما يُتْلى عليْكُم..﴾**(2). فقد جاء تفسير قوله **﴿إلاّ ما يُتْلى عليْكُم﴾**

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 7.

(2) سورة المائدة، الآية: 1.

openkandi.com

في آية كريمة أخرى هي قوله تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ والدَّم ولحم الخنْزير وما أُهِلَّ لِغَيْرِ الله به..﴾ [1] الآية. وكذلك قوله تعالى: ﴿والسَّماء والطَّارق﴾ [2] جاء تفسير الطارق في نفس السورة ﴿النجم الثاقب﴾ [3] وكذلك قوله تعالى ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّه كلماتٍ فَتَابَ عَلَيْه﴾ [4]. الآية. جاء تفسير الكلمات التي تلقاها آدم في موطن آخر من القرآن، وهي قوله تعالى ﴿قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وإنْ لم تَغْفِرْ لَنا وتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرينَ﴾ [5].

ومن الأمثلة أيضاً على تفسير القرآن بالقرآن قوله تعالى ﴿إنَّا نزَلْنَاه في لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ [6] جاء تفسير الليلة المباركة بأنها ليلة القدر في قوله جلّ ذكره ﴿إنَّا أنْزَلْنَاهُ في لَيْلَةِ القَدْرِ﴾ [7] إلى آخر ما هنالك.

ب ـ ومثال ما جاء في السنة المطهرة تفسيراً وشرحاً للقرآن أنه ﷺ فسّر الظلم بالشرك في قوله سبحانه ﴿الذينَ آمنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إيمانَهم بظلم، أولئكَ لَهُمُ الأمْنُ وهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [8] وأيّد تفسيره هذا بقوله تعالى ﴿إنّ الشِّرْكَ لظُلْمٌ عظيمٌ﴾ [9].

وفسر ﷺ الحساب اليسير بـ (العَرْض) أي عرض الأعمال على المؤمن وتذكيره بها فقط وذلك حين قال: «من نوقش الحساب عُذّب» فقالت السيدة عائشة له: يا رسول الله أو ليس قد قال الله تعالى ﴿فأما مَنْ أُتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ★ فَسَوفَ

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.
(٢) سورة الطارق، الآية: ١.
(٣) سورة الطارق، الآية: ٣.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٣٧.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.
(٦) سورة الدخان، الآية: ٣.
(٧) سورة القدر، الآية: ١.
(٨) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.
(٩) سورة لقمان، الآية: ١٣.

obeikandi.com

يحاسَبُ حساباً يَسيراً * وَيَنْقَلِبُ إلى أهله مَسْروراً﴾ [١] فقال ﷺ، ذلك العَرْض، (بياناً للحساب اليسير) وأما من نوقش الحساب عذّب. وكتفسيره ﷺ الصلاة الوسطى في قوله تعالى ﴿حَافِظوا عَلَى الصَلَوات والصَّلاةِ الوُسْطى﴾ [٢] بأنها صلاة العصر.. وتفسير المغضوب عليهم، والضالين في سورة الفاتحة باليهود والنصارى، ومن الأمثلة أيضاً على تفسير النبي ﷺ للآيات الكريمة تفسيره الزيادة في قوله تعالى ﴿للذين أحْسَنُوا الحُسْنى وزيادَة..﴾ [٣] الآية. فقد فسّرها بأنها النظر إلى وجه الله الكريم، وكتفسيره ﷺ القوة (بالرمي) في قوله تعالى: ﴿وأعِدّوا لهم ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوّة﴾ [٤] فقد قال ﷺ ألا إن القوة الرميُ، ألا إن القوة الرمي. وكتفسير قوله تعالى ﴿يومئذٍ تُحدّثُ أخْبارَها﴾ [٥] قال ﷺ: «أتدرون ما أخبارها»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها»، تقول: عملت يوم كذا وكذا، وأمثال هذه التفاسير كثير، وقد جمع (السيوطي) في كتابه (الاتقان في علوم القرآن) طائفة كبيرة من التفاسير النبوية فليرجع إليه.

وكلا هذين القسمين (تفسير القرآن بالقرآن) وتفسير (القرآن بالسنة) لا شك في أنه أعلى أنواع التفسير. ولا شك في قبوله، أما الأول فلأن الله تعالى أعلم بمراد نفسه من غيره، وكتاب الله تعالى أصدق الحديث لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وأما الثاني. فلأنَ الرسول ﷺ قد بيّن مهمّة القرآنُ، وذكر أنها مهمة التوضيح والبيان ﴿وأنْزَلْنَا إلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيّنَ للنّاسِ ما نُزّلَ إلَيْهِمْ.﴾ [٦] الآية. فما جاء عن رسول الله ﷺ من شرح أو بيان بسند صحيح ثابت فإنه مما لا شك في أنه حق يجب اعتماده.

---

(١) سورة الأنشقاق، الآية: ٧ ـ ٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

(٣) سورة يونس، الآية: ٢٦.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

(٥) سورة الزلزلة، الآية: ٤.

(٦) سورة النحل، الآية: ٤٤

ج - تفسير الصحابة:

بقي القسم الثالث من أقسام التفسير المأثور ألا وهو (تفسير الصحابة) فإنه أيضاً من التفسير المعتمد المقبول، لأن الصحابة رضوان الله عليهم قد اجتمعوا بالرسول ﷺ ونهلوا من معينه الصافي، وشاهدوا الوحي والتنزيل، وعرفوا أسباب النزول، وهم من صفاء نفوسهم، وسلامه فطرتهم، وعلوّ منزلتهم في الفصاحة والبيان، ما يؤهلهم من الفهم الصحيح السليم لكلام الله، ومايجعلهم يدركون أسرار هذا القرآن أكثر من أيّ إنسان.

قال الحاكم:(إن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل له حكم المرفوع) ومعنى هذا أن تفسير الصحابي له حكم الحديث النبوي الذي رفع إلى النبي ﷺ فهو إذاً من المأثور.

وأما التابعي: فقد اختلف في تفسيره، فذهب بعض العلماء إلى أنه من المأثور لأنه تلقاه من الصحابة غالباً، ومنهم من قال إنه من التفسير بالرأي، أي له حكم بقية المفسّرين فسّروا حسب قواعد اللغة العربية دون التزام للمأثور.

ملاحظة: التفسير بالمأثور من أجود أنواع التفسير إذا صحّ سنده إلى الرسول ﷺ أو إلى الصحابة. وينبغي التثبت من الرواية عند ذكر التفسير بالمأثور.. قال الحافظ (ابن كثير) رحمه الله: إن أكثر التفسير المأثور قد سري إلى الرواة من زنادقة اليهود والفرس، ومسلمة أهل الكتاب، وجلّ ذلك في قصص الرسل مع أقوامهم، وما يتعلق بكتبهم ومعجزاتهم، وفي تاريخ غيرهم كأصحاب الكهف.. الخ. فينبغي إذاً التثبت من الرواية.

أسباب ضعف الرواية بالمأثور:

ذكرنا فيما تقدم أن تفسير بعض القرآن ببعض، وتفسير القرآن بالسنةالصحيحة المرفوعة إلى النبي ﷺ لا شك في قبوله ولا خلاف في أنه من أعلى مراتب التفسير، وأما تفسير القرآن بالمأثور عن الصحابة والتابعين فإنه يتطرق إليه الضعف من وجوه:

أولاً: اختلاط الصحيح بغير الصحيح، ونقل كثير من الأقوال المنسوبة إلى

الصحابة أو التابعين من غير إسناد ولا تثبت، مما أدّى إلى التباس الحق بالباطل.

ثانياً: أن تلك الروايات مليئة (بالإسرائيليات) ومنها كثير من الخرافات التي تصادم العقيدة الإسلامية، والتي قام الدليل على بطلانها، وهي مما دخل على المسلمين من أهل الكتاب.

ثالثاً: أن بعض أصحاب المذاهب المتطرفة لفّقوا أقوالاً، وصنعوا أباطيل نسبوها إلى بعض الصحابة مثل (الشيعة) شيعة علي المتطرّفين نسبوا إليه ما هو منه بريء، ومثل أولئك المتزلّفين للعباسيين نسبوا إلى (ابن عباس) ما لم يصحّ نسبته اليه، تملقاً للحكام.

رابعاً: أن بعض الزنادقة من أعداء الإسلام دسّوا على الصحابة والتابعين كما دسّوا على رسول الله ﷺ في الأحاديث النبوية، وذلك بفرض هدم الدين عن طريق (الدسّ والوضع) فمن هذه الناحية ينبغي الاحتياط والتثبيت والحذر من الأقوال التي تنسب إلى الصحابة الكرام أو التابعين[1].

رأي الزرقاني في مناهل العرفان:

وقد ذكر الأستاذ (الزرقاني) في كتابه مناهل العرفان كلاماً حسناً حول التفسير بالمأثور بعد أن ذكر نقولاً عن الإمام أحمد رحمه الله، وعن ابن تيمية رحمه الله فقال:

(وكلمة الانصاف في هذا الموضوع أن التفسير بالمأثور نوعان:

أحدهما: ما توافرت الادلة على صحته وقبوله، وهذا لا يليق بأحد ردّه، ولا يجوز إهماله وإغفاله، ولا يجمل أن نعتبره من الصوارف عن هدي القرآن، بل هو على العكس عامل من أقوى العوامل على الاهتداء بالقرآن.

ثانيهما: ما لم يصحّ لسبب من الأسباب الآنفة أو غيرها، وهذا يجب ردّه ولا يجوز قبوله ولا الاشتغال به، ولا يزال كثير من أيقاظ المفسرين كابن كثير يتحرّون الصحة فيما ينقلون، ويزيّفون ما هو باطل أو ضعيف).

---

(١) أنظر كتاب (مناهل العرفان) للزرقاني ص ٤٩١.

أشهر المفسرين من الصحابة:

قال السيوطي في (الإتقان): (اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير... أما الخلفاء فأكثر من رُوِيَ عنه فهم: (علي بن أبي طالب) كرّم الله وجهه، والرواية عن الثلاثة قليلة جداً، وكأن السببَ في ذلك تقدّم وفاتهم) انتهى.

وأما السبب في قلة الرواية عن الثلاثة (أبي بكر وعمر وعثمان) فإنما يرجع كما نبّه إليه السيوطي إلى قصر مدة خلافتهم وتقدم وفاتهم، ومن ناحية أخرى فإنهم قد عاشوا في وسط أغلبُ أهله كانوا علماء بكتاب الله، لأنهم صاحبوا الرسول ﷺ، فكانوا واقفين على أسرار التنزيل عارفين بمعانيه وأحكامه. أما (علي) رضي الله عنه فقد عاش بعد الخلفاء الثلاثة في وقت اتسعت فيه رقعة الإسلام، ودخل كثير من العجم في الدين الجديد، ونشأ جيل من أبناء الصحابة كانوا بحاجة إلى دراسة القرآن، وتفهّم أسراره وحِكَمه، ولذلك اشتهرت الرواية عنه أكثر من بقية الخلفاء الراشدين.. وسنتكلم بشيء من التفصيل عن بعض هؤلاء الصحابة الذين اشتهروا بتفسير القرآن.

١ ـ عبد الله بن عباس:

عبد الله بن العباس رضي الله عنهما حَبْر هذه الأمة، وهو ابن عم رسول الله ﷺ الذي دعا له الرسول الكريم بقوله: «اللهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل» وهو المسمّى بـ(ترجمان القرآن). قال عبد الله بن مسعود: (نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس). كان أعلم الصحابة بتفسير القرآن الكريم، وقد شهد له بالفضل ـ وهو شاب في عنفوان الصبا ـ كبار الصحابة حتى كان ينافسهم وينتزع إعجابهم مع حداثة سنه، وكان عمر رضي الله عنه يدخله إلى مجلس الشورى مع كبار الصحابة الأجلاء يستشيرهم، وربما عرض الأمر عليه، وكان تقدير عمر لابن عباس مثار جدل عند بعض الصحابة، حتى قال بعضهم: لم يدخل هذا الشاب معنا وعندنا من الأولاد من هو أكبر منه سناً.. وله قصة رواها البخاري في صحيحه تدل على غزارة علمه، وعلو شأنه في الغوص على دقائق أسرار القرآن.

رواية البخاري:

روى البخاري من طريق (سعيد بن جبير) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأنّ بعضهم وجد في نفسه، فقالوا: لم يدخل هذا معنا وإنّ لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن علمتم (يعني إنه من عرفتم ذكاءه وعلمه)، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلاّ ليريهم! فقال: ما تقولون في قول الله تعالى ﴿إذا جاء نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ﴾[1]. فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً. فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: إذا جاء نصر الله والفتح، فذلك علامة أجلك، فسبّح بحمد ربّك واستغفرْهُ إنّهُ كانَ تَوّاباً. فقال عمر: والله لا أعلم منها إلا ما تقول[2]. فهذه القصة تدلّ على مدى قوة فهمه، ودقة رأيه في استنباط الإرشادات القرآنية التي لا يدركها إلا الراسخون في العلم.. ولا عجب أن ينال ابن عباس تلك الرتبة الرفيعة في فهم أسرار القرآن، فقد دعا له الرسول ﷺ بالفهم والفقه في الدين كما روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ضمّني رسول الله إلى صدره وقال: «اللهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل»، وفي رواية «اللهم علّمه الحكمة».. وكان (ابن عباس) يسمى البحر لكثرة علمه.

روى أن رجلاً أتى (عبد الله بن عمر) يسأله عن السموات والأرض (كانتا رتقاً ففتقناهما)[3]، فقال: اذهب إلى ابن عباس فاسأله ثم تعال فأخبرني! فذهب فسأله فقال: كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات، فرجع إلى ابن عمر فأخبره فقال: قد كنت أقول ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه أوتي علماً.

---

(١) سورة النصر، الآية: ١.

(٢) أنظر: صحيح البخاري، باب فضائل الصحابة.

(٣) سورة الأنبياء جزء من الآية: ٣٠.

وروي أنّ عمر بن الخطاب قال يوماً لأصحاب النبي ﷺ فيمن ترون هذه الآية نزلت ﴿أيَوَدّ أحدكُمْ أنْ تكُونَ لَهُ جَنّةٌ منْ نَخيل وأعناب..﴾[1] الآية. قالوا: الله أعلم فغضب عمر، فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء، فقال: يا ابن أخي قُلْ ولا تحقرْ نفسك!! قال ابن عباس: ضُرِبَتْ مثلاً لعمل، فقال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غني يعمل بطاعة الله ثم بعث له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله. » رواه البخاري «.

كل هذا وأمثاله كثير يدل على مبلغ علم ابن عباس وفهمه الثاقب منذ حداثة سنه، ولهذا أصبح في مصاف كبار شيوخ الصحابة، وأصبح يدعى حَبْر الأمة بشهادة الصحابة أنفسهم.

شيوخ ابن عباس:

ومن شيوخ ابن عباس الذين استقى منهم علومه بعد رسول الله ﷺ، وكان لهم أبرز الأثر في توجيهه وثقافته (عمر بن الخطاب، وأبي بن كعب، وعليّ بن أبي طالب، وزيد بن ثابت) وهؤلاء الخمسة هم أهم شيوخه الذين أخذ عنهم أكثر علمه وتلقى منهم معظم ثقافته، وكان لهم أثر في توجيهه تلك الوجهة العلمية الدقيقة.

تلامذة ابن عباس:

تلقى العلم عن ابن عباس عدد كبير من التابعين كان من أشهرهم تلامذته المشهورون الذين نقلوا تفسيره وعلمه الغزير وهم: (سعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر الخزرمي، وطاووس بن كيسان اليماني، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح) وهؤلاء هم أظهر تلامذته الذين نقلوا مدرسة ابن عباس في التفسير إلينا رضي الله عنه جميعاً.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٦.

obeikandl.com

٢ ـ عبد الله بن مسعود:

ومن أعلام الصحابة الذين اشتهروا بالتفسير. ونقلوا لنا آثار الرسول وأقواله (عبد الله بن مسعود) رضي الله عنه، فقد كان من السابقين إلى الإسلام، وكان سادس ستة ما على وجه الأرض مسلم سواهم، وكان خادم رسول الله ﷺ يُلْبِسه نعليه، ويمشي معه وأمامه، فكان له من هذه الصلة النبوية خير مثقف ومؤدب، لذلك عدّوه من أعلم الصحابة بكتاب الله، ومعرفة محكمه ومتشابهه، وحلاله وحرامه، قال السيوطي: قد روي عن ابن مسعود في التفسير أكثر مما روي عن عليّ كرّم الله وجهه. روى الشيخان عنه أنه قال: (والذي لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله تعالى إلا وأنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله تعالى إلا وأنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الابل لركبت إليه..) روى عنه كثير من التابعين.